فيليب الرابع وسياسته تجاه البابوية1295 – 1314م

م.د. اسامة صاحب منعم
جامعة بابل
مركز بابل للدراسات الحضارية والتاريخية

أ.م.د. وائل جبار جودة
جامعة المثنى
كلية التربية للعلوم الإنسانية

Philip IV and his policy towards the papacy 1295-1314

Dr. Osamah Sahib Munim
University of Babylon
Center for cultural and historical Studies

Ass.Prof.Dr. Wael Jabbar Jouda
University of Muthanna
College of Education for Human Sciences

Abstract:

At the end of the 13th century and the beginning of the fourteenth century, there Was a heated Struggle between tow authority represented Pope Boniface VIII and the temporal Power of French King Philip IV To Prove the authority is the most worthy Loyalty and obedience, Until the end of the conflict with the Victory of King Philip IV, making the Period of his rule a Pivotal stage in European history and French Private, he spent on the most Powerful monastic military bodies, the body of the Knights Templar. His reign was Strengthened by the idea of national Ownership and the emergence of the Council Classes and relying on Specialized departments and Staff for Financial and Judicial matters, At the same time, however, We hind at the Same time an autocratic rule the French have often Suffered from, not taking into consideration the common good.

Mark Lowry, Boniface VIII and Philip IV: Conflict Between Church and State.

Key words : Philip Iv, The Papacy, Knights Templar (Court), Inquisition, Medieval.

الملخص:

شهد أواخر القرن الثالث عشر ومستهل القرن البارع عشر صراعاً ملتهباً بين سلطتين هي السلطة الروحية متمثلة بالبابا بونيفاس الثامن وبين السلطة الزمنية المتمثلة بالملك الفرنسي فيليب الرابع لإثبات أي سلطة هي الأجدر بالولاء والطاعة، حتى انتهى ذلك الصراع بانتصار الملك فيليب الرابع جاعلاً من فترة حكمه مرحلة مفصلية في التاريخ الاوربي والفرنسي خاصة، فقد قضى على أهم الهيئات العسكرية الرهبانية القوية وهي هيئة فرسان الهيكل، كما اتسم عهده بتعزيز فكرة الملكية الوطنية وظهور مجلس الطبقات والاعتماد على دوائر مختصة وموظفين للأمور المالية والقضائية، إلا أننا نجد بالوقت نفسه حكماً اوتوقراطياً مطلقاً عانى منه الفرنسيون كثيراً لعدم مراعاة الصالح العام.

الكلمات المفتاحية: فيليب الرابع، البابوية، فرسان الهيكل (الداوية)، محكمة التفتيش، العصور الوسطى.

المقدمة:

حفل أواخر الربع الأخير من القرن الثالث عشر ومستهل القرن الرابع عشر بأحداث تركت بصمتها في التاريخ الاوربي عامة والفرنسي خاصة، فبعد قرون طوال من النفوذ الديني للبابوية في روما على ملوك وأمراء اوربا بصبغة قدسية لا يمكن النيل منها، أضحت فيها السلطة الروحية من القوة التي طغت بدورها على السلطة المدنية.

بدأت أحداث هذا البحث الذي تناول مرحلة مفصلية في العلاقة بين السلطة الروحية والسلطة المدنية، وكيف استطاع ملك شاب يدعى فيليب الرابع (الوسيم) وريث مجتمع وبيئة لطالما آمنت بقدسية السلطة الروحية للبابا ودافعت عنها وقادت الحملات الصليبية بمباركة وتحريض منها، أن ينتفض ضد تلك السلطة مؤمناً بالسلطة الملكية المطلقة حتى وان كان وراء ذلك دوافع غير سامية، فاستطاع بمدة وجيزة وعبر الدخول بصراع ملتهب مع البابوية في روما متمثلة بالبابا بونيفاس الثامن الذي لا يقل عنداً وصلابة عن الملك الذي نجح بالاستعانة بفئة من المستشارين القانونيين والأكاديميين من أبناء الطبقة الوسطى لكبح جماح النبلاء ورجال الدين لتحقيق غايته وهي الملكية المطلقة، التي حققها عندما انتصر على البابا بونيفاس الثامن وأصبح له اليد الطولى في اختيار من يجلس

على العرش البابوي وعندما تم نقل مقر البابوية من روما إلى فرنسا، فضلاً عن قضائه على أهم الهيئات العسكرية الرهبانية القوية وهي هيئة فرسان الهيكل (الداوية).

رافق ذلك الصراع متغيرات سياسية في السياسة ونظام الحكم الفرنسي، فقد ظهرت لأول مرة بوادر الملكية الوطنية الفرنسية، فعقد مجلس الطبقات الثلاث ممثلاً لمكونات الشعب الفرنسي، الذي حرص فيليب الرابع على الأخذ بدعمه وتأييده في سياسته تجاه البابوية، كما ظهرت دوائر مختصة بشؤون الدولة المالية والقضائية، كما رافق الصراع وجهاً سلبياً عانى منه الفرنسيون سيما الناحية الاقتصادية وكثرة الضرائب.

يتألف البحث من مقدمة ومبحثين وخاتمة، تطرق المبحث الأول الذي جاء تحت عنوان فيليب الرابع 1268–1314 إلى ولادته ونشأته والى الظروف التي أحاطت بولايته للعرش الفرنسي، كما تم تناول أهم السمات الأساسية في حكمه، فضلاً عن التطرق إلى مستشاريه وسياسته المالية وكذلك الأوضاع العامة في عصره.

أما المبحث الثاني الذي جاء تحت عنوان سياسة فيليب الرابع تجاه البابوية 1296–1314، فقد استعرض مراحل الصراع بين الملك فيليب الرابع والبابا بونيفاس الثامن، ثم أوضح سياسة فيليب الرابع تجاه البابوية بعد بونيفاس الثامن، فضلاً عن توضيح موقف فيليب الرابع من هيئة فرسان الهيكل (الداوية).

تمت الاستعانة بعدد مهم من المصادر والمراجع العربية والمعربة، وكذلك الأجنبية سيما أن تلك الحقبة من التاريخ تعاني من قلة المصادر التي تتناول أحداثها بالتفصيل، ومن أهمها كتاب (تاريخ اوربا في العصور الوسطى) لمؤلفه سعيد عبد الفتاح عاشور، وكذلك كتابا (معالم تاريخ اوربا في العصور الوسطى) و(حضارة اوربا في العصور الوسطى) لمؤلفهما محمود سعيد عمران، وكتاب(التاريخ الوسيط قصة الحضارة البداية والنهاية) لمؤلفه نورمان ف. كانتور، وأيضاً كتاب (فرسان الهيكل) لمؤلفه ستيفن هوارث.

المبحث الاول

فيليب الرابع 1268–1314

أولاً: ولادته ونشأته:

ولد فيليب الرابع (Philip1V) في إحدى قلاع العصور الوسطى في فونتينبلو (fontainebleau) التي تقع جنوب شرق باريس في نيسان عام 1268[1]، وهو ابن الملك فيليب الثالث (Philip111) من أسرة كابيه (Family Cabaye [2]، والدته ايزابيلا أرغون (Aragonne Isabella) الزوجة الأولى لفيليب الثالث وكان تسلسله الثاني من أبنائه الأربعة أذا كان والده ولي عهد فرنسا في ذلك الوقت فهو الابن البكر للملك لويس التاسع، عندما بلغ فيليب عامين من العمر في أب عام1270 توفي جده أثناء الحملة الصليبية الثامنة نحو تونس[3].

أصبح والده الملك وشقيقه الأكبر لويس (Louis) الوريث الوحيد لولاية العهد وفي وقت لاحق أي ما يقارب الخمسة أشهر فقط وفي كانون الثاني عام 1271م توفيت والدته بعد سقوطها من الحصان وكانت آنذاك حاملاً بطفلها الخامس ولم يتم بعد تتويجها بوصفها ملكه بجانب زوجها، وبعد بضعة أشهر تعرض فيليب الرابع الى انتكاس أخرى وهي موت واحد من الأخوة الأصغر سن له وهو روبرت (Robert) وأخيراً توج والده ملك في ريمخ (Rhiems) في شمال فرنسا يوم الخامس عشر من آب عام 1271م كما ذكرنا

(1) ينظر الملحق، ص38.

(2) أسرة كابيه: ظل المفهوم اللغوي لكلمة كابيه من حيث المعنى محطاً للجدل، فمن المعروف أن هذه الأسرة نشأت كأسرة إقطاعية ثرية وأن كانت أصولها غامضة لكنها كانت تشغل مناصب هامة في فرنسا، وتتمتع بحصانة قوية استمدتها من ملوك الدولة الكارولنجية، واول من لقب بكابيه هو هوف (Huff) الذي انتخب كملك لفرنسا عام 987م، عن طريق الانتخاب من قبل اللوردات. للمزيد من التفاصيل ينظر:

C.W.Post, The hour and man Abiography with Genealogical supplement, Nettie Leitch cillustr a tor), Judd and Detweiler press, Washington,1963.

(3) للمزيد من التفاصيل عن الحملة الصليبية الثامنة على تونس ينظر: احمد الطويلي، الحملة الصليبية الثامنة على تونس، مجلة المورد، العدد الرابع، بغداد، 1987، ص ص 192-202؛ زبيدة محمد عطا، " رؤية تاريخية في الحملة الصليبية الثامنة على تونس" ندوة الغرب الأسلامي والغرب المسيحي (تنسيق) محمد حمام، الرباط، ١٩٩٥.

أنفا[1]، وبعد ستة أيام تزوج مره أخره وكانت زوجه الأب لفيليب الرابع هي ماري (Mary) ابنة هنري الثالث دوق برابانت (Henry III, Duke of Brabant)[2].

ثانياً: ولايته للعهد والعرش الفرنسي:

توفي لويس الابن الأكبر لفيليب الثالث في أيار عام 1276م وأصبح فيليب الرابع في ذلك الحين في عمر ثمانية أعوام وليا للعهد ويشتبه في أن لويس مات مسموما وان زوجة أبيه ماري برابانت قد حرضت على قتله، وكان احد أسباب هذه الشائعات أن الملكة أنجبت ابنها البكر في نفس الشهر الذي توفي فيه ولي العهد على الرغم من وجود فيليب على قيد الحياة وكذلك شقيقه تشارلز (Charles)، وخلال مرحلة شبابه تكفل بمهمة تدريسه المربي كيوم دي أيرج (Guillaume de Aragon) الذي كان يعمل في بلاط والدة ولم يكن شخصية مرنة ونعت بالكثير من النعوت من الصديق والعدو على حد سواء إذ قال عنه برنارد سيسي (Bernard Saisset)، أسقف باميه (Pamier) انه ليس رجل ولا وحش هو تمثال وهذا دليل على قوة شخصيته وطموحه السياسي، وقد سنحت لفيليب الرابع الفرصة لتولي العرش الفرنسي في وقت كانت فيه الأوضاع العامة متردية بسبب ما لحق بفرنسا من ضعف وفقدان الهيبة أبان حكم والدة الذي لم يكن مؤهلا للحكم وكذلك عمه ليس أفضل حالا من والدة ونتيجة لذلك جاءته الفرصة الذهبية لتوليه العرش عندما كان في السابعة عشر من العمر وعرف عنه الحنكة السياسية[3].

بدأ الملك فيليب الرابع التوسع السياسي في مملكته، واخضاع ما تبقى من المقاطعات الكبيرة والسعي لتحقيق زعامة فرنسا على غرب اوروبا، لذلك اعلن منذ اعتلائه العرش عام 1285 ان الحدود الطبيعية لبلاده هي الالب (Les Alpes) والراين(stross) والبرانس (Leprines)، وتطلع الى اخذ جوين (Gwyn) وجاسكوني (Gasconi) اللتين كانتا تحت سيادة الانكليز الفعلية، في حين سيادتها الاسمية كانت تابعة الى فرنسا،[4] ومن جانب أخر ضم مقاطعة شمبانيا (Champayne) الى مملكته بعدما تزوج من جين دي نافار (Jeanne de Navarre) في السادس عشر من اب عام 1284، وهي ملكة نافار وكانت في سن الحادية عشر من العمر وانجبت له ستة أولاد، وبعد ذلك أشترى الملك فيليب الرابع مقاطعة شارتر (Chartres) وسرعان ما انضمت فرانس كمتيه (France Comte) واقليم ليون (Lyon) وجزءا من اللورين (Laurine) لفرنسا[5]، وتصادمت المصالح الفرنسية الانكليزية أيضاً في اقليم الفلاندرز (Flandres) الذي كان من أهم المراكز الصناعية والتجارية في غرب أوربا[6].

ثالثاً: السمات الاساسية في حكمه:

لقب فيليب الرابع بالوسيم لجمال وجهه ووسامته لا لدهائه السياسي وجرأته وقسوة قلبه، كان يأمل إخضاع كل طبقتي النبلاء ورجال الدين وأهل المدن وأرقاء الأراضي لحكم القانون وسيطرة الملك مباشره و إنماء فرنسا وتقدمها على أساس التجارة والصناعة وليس الزراعة ومد حدودها الى المحيط الأطلنطي وجبال البرانس والبحر المتوسط وجبال الألب ونهر الرين[7].

---

(1) http:// www. Glbet-el.org/ masonictexte/ Philip% 20 IV % 20 the % 20 Fair. Pdf.

(2) هنري الثالث: هو دوق برابانت ولد عام 1230، وسط عائلة ارستقراطية وتوارث دوقيته من بعده ابناءه هنري الرابع الذي كان معاق ذهنياً الذي تنازل عن دوقيته لصالح شقيقه جون الاول، وكان لديه ابن شجاع فارس اسمه غودفري قتل في معركة الرماح الذهبية عام 1302، الى جانب ابنته ماري زوجة ملك فرنسا فيليب الثالث، وتوفي عام 1261. للمزيد من التفصيلات ينظر:

https://en.wikipedia.org/wiki/Henry_III,_Duke_of_Brabant

(3) http://www.glbet-el.org/masonictexte/Philip%20IV%20the%20Fair.pdf

(4) سعيد عبد الفتاح عاشور, تاريخ اوروبا في العصورالوسطى, دارالنهضه العربيه, بيروت,1976، ص235.

(5) http://www.glbet-el.org/masonictexte/Philip%20IV%20the%20Fair.pdf

(6)ابرز تلك المصالح في اقليم الفلاندرز الذي كان تابعا من الناحية العملية الى التاج الفرنسي ولكن سكانه من الفلمنك والناطقون بالفلمنكية وهي لهجة المانية شمالية تقرب الهولندية كانوا يميلون لصالح التاج البريطاني بحكم ارتباطهم به اقتصاديا عن طريق الصوف الانكليزي الذي كان يصدر له ليعاد تصنيعه وبيعه في هذا الاقليم، يزاد على ذلك تنافس الجانبان الفرنسي والانكليزي حول مصائد الاسماك في بحر الشمال فقد حدثت الكثير من الاشتباكات بين الطرفين. للمزيد من التفصيلات ينظر: سعيد عبد الفتاح عاشور, المصدر السابق، ص 236؛ نورمان ف. كانتور، التاريخ الوسيط (قصة حضارة البداية والنهاية)، ترجمة قاسم عبده قاسم، ج2، عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية، القاهرة، 1997، ص642؛ مجموعة من المؤلفين والباحثين، الموسوعة العربية الميسرة، المكتبة العصرية، بيروت، 2010، ص2423.

(7) ول ديوارنت, قصة الحضاره (عصر الايمان), ترجمة محمد لدران, ج4, مج4, دار الجيل, بيروت, 1988, ص236.

شجع في المجال الاقتصادي الصناعة والتجارة حتى لا يعتمد اقتصاد فرنسا على الزراعة فقط ولتنفيذ هذا الأفكار اعتمد على رجال القانون الشبان فكانوا أعوانه ومستشاريه ولعل ما دفع الملك فيليب الرابع الى ذلك ما ورثه في فرنسا القوية بجهد أسلافه وبفضل الحروب الصليبية التي أدت فيها فرنسا دور كبير أعاد عليها برفعة أدبية وروحية[1].

رابعاً: مستشاريه وسياسته المالية:

اختلف فيليب الرابع في اختيار أعوانه ومستشاريه عن من سبقه من ملوك فرنسا فلم يختار من كبار رجال الدين والنبلاء الذين ظلوا يخدمونهم طول الأربعة القرون الماضية بل اختارهم من طبقه المحاميين الذين اقبلوا عليه وعقولهم مفعمة بالأفكار الاستعمارية التي أوحى أليهم بها القانون الروماني[2]، فكان وليم دي نوجاريه (William de Nogre)[3] من ذوي العقول النابهة الذين لا يبالون بالمبادئ الأخلاقية وشاد فيليب بفضل توجيههم صراح القانون الفرنسي واحل الشريعة الملكية محل الشريعة الإقطاعية[4].

يعد الملك فيليب الرابع من أدهى رجال الدولة في العصور الوسطى[5] ومن جانب اخر كان بحاجة دائمة إلى المال ولهذا وجه ذكائه ووقته إلى اختراع الضرائب وجمع الأموال واستبدل المال بالقروض الإقطاعية الواجب أداؤها للتاج وخفض قيمة النقد وأصر على إن تودي الضرائب سبائك أو بالنقد الصحيح للقيمة وطرد جميع رجال المال[6] والصيارفة اللمبارديين[7] من فرنسا عام 1291، أما اليهود فحماهم فيليب الرابع في بداية الامر من اجل مقاسمتهم أرباحهم، ولكنهم جمعوا ثروات طائلة عن طريق اشتغالهم بالأعمال المالية واقراض الهيئات الكنسية لإتمام منشأتها الضخمة وكذلك الفرسان والامراء منتهزين فرصة تحريم الكنيسة الربا، واستغل فيليب الرابع الكره الجماعي لليهود فقام بطردهم من بلاده ومصادرة املاكهم عام 1306، ونتيجةً لذلك اصاب الضرر التجارة الفرنسية فسمح لقسم منهم العودة إلى بلادهم، كما طرد رجال المصارف عام 1311[8]، ووقف من هيئة فرسان الهيكل (الداويه) (Templars)[9] موقف عنيف وصادر أملاكهم وحل جماعتهم وعين موظفين بدلاً منهم تحت إشراف هيئة ديوان النفقات واقتصرت مهمتهم على تحصيل الأموال وصرفها ولم يكن لهم شأن بالإدارة المالية[10] ولم يكتف بذلك بل قبض على جميع فرسان الداوية في فرنسا متهماً إياهم بالعمل ضد المسيحية منتزعاً منهم اعترافاً بإدانتهم بالهرطقة واللواط[11].

(1) محمود سعيد عمران, معالم تاريخ أوروبا في العصور الوسطى, دار المعرفة الجامعية, بيروت, 1986, ص224.
(2) ول ديورانت، المصدر السابق، ج4، ص236.
(3) وليم دي نوجاريه: ينحدر نوجاريه من اصول تنتمي للطبقة المتوسطة كان والده تاجراً في مدينة تولوز في الجنوب الفرنسي، وقد اخذت العائلة اسمها من قطعة ارض صغيرة يملكونها اعطتهم هي الاسم مع ان العائلة انتهت بنهاية القرن الرابع عشر، كان محامياً يتمتع بقدرات بارزة، وفي الثمانينات من القرن الثالث عشر عمل مستشاراً قانونياً لملك مايوركا، واستاذاً للقانون في جامعة مونبلي، وفي اوائل التسعينات من القرن نفسه انضم للخدمة القانونية لدى الملك فيليب، وفي عام 1299 اصبح من النبلاء، وفي عام 1302 اصبح محامي الملك الأول، فامتلك نهاية حياته ما يقارب 400 ميل مربع من فرنسا تضم ما يقارب 10 الاف شخص، كانت كراهيته للبابوية متأصلة نتيجة احراق جده لاتهامه بالهرطقة على ايدي محاكم التفتيش وفرسان الهيكل، توفي عام 1315. ينظر: ستيفن هوارث، فرسان الهيكل (القضية الأساسية)، ترجمة: ابراهيم محمد ابراهيم، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2013، ص304.
(4) ول ديوارنت, المصدر السابق, ج4، ص236.
(5) جون هامرثن, تاريخ العالم, مج (6), مكتبة النهضة المصرية, القاهرة، د.ت، ص377.
(6) سعيد عبد الفتاح عاشور, المصدر السابق, ص ص 240-241.
(7) الصيارفة اللومبارديين: تعود تلك التسمية إلى أصل مفهوم أول بنك يستحق هذا الاسم وهو ما تم إنشاؤه في مدينة البندقية في إيطاليا بالرجوع إلى صيارفة لومباردو (Lombardo) الذين كانوا يجلسون وراء طاولاتهم الخشبية المعروفة بالبنكو (Baneco). ينظر:
S.H.Homoud, Islamic Banking, Arabian Information, London, 1985,P.24.
(8) سعيد عبد الفتاح عاشور, المصدر السابق, ص ص 240-241.
(9) فرسان الهيكل (الداويه): نشأت هيئة الداوية في أول الأمر على أساس حربي ويرجع تأسيسها إلى عام 1118م، عندما وضع أساسها هيودي باينز (Hugue de Payens) وجود فري اف سانت أو مير (Godfrey Saint Omer)، وقد اختارت من هيكل سليمان في المسجد الأقصى ببيت المقدس مقراً لها، ومن هنا جاءت تسمية فرسان الهيكل التي حرفت باللغة العربية إلى كلمة الداويه، ثم تبلورت إلى الطابع الديني العسكري، مع إبقاء الولاء للبابا، وقد ازدادت املاكها خاصة في القرن الثاني عشر حتى أضحت على درجة كبيرة من الثراء، وكان لها دور فاعل في سد الفراغ في حياة الصليبيين في الشام بالمحافظة على الكيان الصليبي في الشام وفي محاربة المسلمين والتي لولا ما قام به أولئك الفرسان من جهود حربية لا تنهي الكيان الصليبي بالشام قبل نهاية القرن الثالث عشر. للتفاصيل ينظر: محمود سعيد عمران، حضارة أوربا في العصور الوسطى، دار المعرفة الجامعية،القاهرة، 1998، ص ص 113-114.
(10) محمود سعيد عمران, معالم تأريخ أوربا في العصور الوسطى, ص224؛ ول ديوارنت, المصدر السابق, ص237.
(11)سعيد عبد الفتاح عاشور, المصدر السابق, ص 242؛ نورمان ف. كانتور، المصدر السابق، ص654.

تفنن فيليب الرابع بفرض الضرائب فقد فرضها على المبيعات مما ادى الى تدهور وضع أسواق شامبني العظيمة، فضلاً عن الضرائب التي فرضها على الصادرات والواردات، واستغل تلك الضرائب في تنظيم الجانب التجاري، علاوة على ذلك فرض الضرائب على الاصواف الانكليزية والفلمنكية من اجل تعزيز الانتاج الوطني، وضرائب اخرى على الهيئات الخاصة مثل النقابات والاديرة والجامعات وأراضي النبلاء والطبقة البرجوازية، وفرض على كل مدينة مبلغ معين من المال، ومنح البلديات حرية جمع الضرائب من الاهالي[1].

تقدمت فرنسا تقدماً رائعاً في بعض النواحي الاقتصادية والتشريعية والتعليمية والأدبية والفنية فقد جذبت الصناعات رقيق الأرض وظهرت طبقت رجال الأعمال ورجال القانون التي طغت على طبقة رجال الدين والنبلاء وأصبح للطبقة الجديدة صوت في مجلس طبقات الأمة (Conseil des couches meres) الذي عقد عام 1302م وهو المجلس الذي ناصر الملك ضد البابوية[2]، فقد أعلن ممثلي الطبقات في ذلك الاجتماع الذي عقد في أول مرة في التاريخ الفرنسي عن تأييدهم للملك في سياسته تجاه البابوية، فضلاً عن إمداده بالجهاز اللازم لجباية الضرائب[3] وحرص فيليب الرابع على استدعاء الجمعيات العامة في طول المملكة وعرضها وهي تختلف عن الجمعيات الاقطاعية القديمة، إذ كانت قائمة على أساس النظام الانتخابي بحيث لم يكن الاساقفة والنبلاء يستدعون إليها بصورة فردية، بل سينتخبون انتخاباً مثلهم في ذلك مثل ممثلي الطبقة الثالثة[4] ومن ناحية اخرى يعد فيليب الرابع من ملوك فرنسا الانتهازيين المؤمنين بان الغاية تبرر الوسيلة وقيل انه كان مضطر إلى اتباع مثل هذا الأسلوب تعزيزاً لمركزه وان الأعمال التي قام بها استهدفت خدمة المصالح الفرنسية، وأن كانت سياسته العدوانية التي استخدامها تجاه البابوية وفرسان الهيكل واليهود لاحتياجه الدائم إلى الاموال في مشاريعه التوسعية أذ أمر الاقطاعين بإيفاء ما عليهم من تعهدات نقدية للتاج وكثيراً ما تسبب ذلك في تلاعبهم بالعملة من أجل تلافي ضرائبه[5].

اعتمد الملك فيليب الوسيم على ثلة من المستشارين فوضهم لجمع المال فابتكروا بدورهم طرق عنيفة لذلك الغرض، فضلاً عن فرض الضرائب على الواردات والصادرات ونتيجة لذلك جرى التلاعب بالعملة فعلى سبيل المثال تسبب تغيير الملك في قيمة العملة عام 1306، أعمال شغب في شالون (Chalan)، وليون (Lyon)، وباريس (Paris)[6]، وفي النهاية أجبر مثيري الشغب فيليب نفسه الى اللجوء إلى حصن يعود إلى فرسان الهيكل[7].

تحسن وضع الدولة المالي إلا أن الآثار كانت سيئة للغاية بعد وفاته، فرغم حب الشعب الفرنسي للملك فيليب الرابع وإعجابه بشجاعته ألا أن اصب اللعنات على ذكراه، فقد رأوا فيه ملكا مستبدا حطم كيان فرنسا وان إصلاحاته المالية عادت بالضرر على الدولة، فمن المعروف اقتصاديا أن رأس المال جبان يهرب من الحكم المطلق لذلك فر رجال المال من اليهود والمرابين، فتعسفه في جمع المال عطل التجارة وشل حركتها وخلاصة القول أن الرخاء الذي ورثه فيليب الرابع عن أجداده كان يسير بالقصور الذاتي في عهد فيليب الرابع ثم اضمحل بعد وفاته عام 1314م[8].

(1) سعيد عبد الفتاح عاشور, المصدر السابق, ص242.
(2) محمود سعيد عمران, معالم تاريخ أوربا في العصور الوسطى، ص ص225-226.
(3) السيد الباز العريني، تاريخ أوربا العصور الوسطى، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1968، ص529.
(4) كلود ديلماس، تاريخ الحضارة الأوربية، ترجمة كوليت حبيب، وزارة الثقافة والارشاد القومي، دمشق، د.ت، ص62.
(5) عبد القادر احمد اليوسف, المصدر السابق, ص119.
(6) Elizabeth A. R. Brown, "Taxation and Morality in the Thirteenth and Fourteenth Centuries: Conscience and Political Power and the Kings of France", Historical Studies 8,French, 1973, p. 17.
(7) أعلن فيليب الرابع في حزيران عام 1206 رجوع العملة إلى القيمة الفعلية بعد سلسلة من التخفيضات اجراها سابقاً، التي أفادت التاج كدائن لكنها اضرته كجامع للضرائب، وأن هذا القرار سيكون ساري المفعول من 8 ايلول من العام نفسه، وهو ما يعني للناس العاديين أن الاسعار سوف تصبح ثلاثة اضعاف، وهو ما دفع الملك فيليب للفرار من المواطنين الذين قاموا بأعمال شغب في كل أنحاء باريس، وبينما كانت اعمال الشغب تلك تقمع بالقوة، لجأ فيليب إلى هيكل باريس يعود لفرسان الهيكل، وهو ما ترك مجالاً من الوقت له لدراسة مقدار الثراء والقوة التي يتمتع بها هؤلاء الفرسان، إذ كان حصنهم يغطي مساحة خمسة عشر فداناً ومحاطاً بسور يبلغ ارتفاعه ثماني عشرة قدماً، ولم يكن للسور سوى بوابة واحدة، وكان البرج يبلغ ارتفاعه مائة وستين قدماً يلقي بظله على باريس، وكان الحصن يكفي لاسكان ثلاثمائة فارس مع خدمهم وجيادهم، فضلاً عن امتلاك هيئة فرسان الهياكل لهذا النوع من الحصون وبالمئات في جميع أنحاء فرنسا. للمزيد من التفاصيل ينظر: ستيفن هوارث، المصدر السابق، ص ص 310-311.
(8) محمود سعيد عمران، معالم تأريخ أوربا الوسطى, ص225.

خامساً: الاوضاع العامة في عصره

برز شعراء الفروسية الذين كانوا يتغنون بالحب العذري في إقليم بروفانس (provence) جنوب فرنسا وظهرت أيضا قصص الملاحم في شمال فرنسا، وفي عصر فيليب الرابع ظهر أيضا اثنين من المؤرخين هما جوانفيل (Joanville) الذي أرخ للملك لويس التاسع وفلهاردوين (Valhardwin) مؤرخ الحملة الصليبية الرابعة التي هاجمت القسطنطينية عام 1204م وأقصت الحكم البيزنطي حتى عام 1261م، وفي عهد فيليب الرابع أيضا ارتقت جامعتا باريس واورليان (Orlain) وأعيد تنظيمهما[1]، بالرغم من ان النزاعات التي قامت في مستهل القرن الرابع عشر بين فيليب الرابع والكنيسة في روما أدت إلى هجرة بعض الأساتذة والطلاب مما حدّ من مكانة المراكز الفكرية الكبرى[2]، فضلاً عن نفي فيليب الرابع للفيلسوف وعالم اللاهوت المعروف جون دونس سكوت (John Duns Secot)[3] بسبب مناصرته لروما كان عاملاً في الحد من النفوذ الثقافي والعلمي للجامعات الفرنسية، وظهرت الكنائس الكبيرة في سانت دنيس(Santantis) ونوتردام (Notro Dame) في تحفة معمارية رائعة في فنها القوطي والأهم من ذلك كله أن الوحدة الوطنية سادت هذه المرحلة بدلاً من النزعة الإقليمية الاقطاعية[4].

ظهرت في عصر فيليب الرابع اللاعقلانية بشكل كبير وتحول الإجراءات القانونية إلى مؤسسة استبدادية محضة فهناك تهم جاهزة لكل من يراد القضاء عليه، مثل عبادة الجن والسحر والشعوذة والشذوذ الجنسي فعلى سبيل المثال القي القبض على اسقف باميه برنارد سيسي عام 1301م، ومن التهم التي وجهت له الخيانة والزندقة، في حين السبب الحقيقي لتلك التهم هو قيامة بحركة مناهضة للملك في جنوب فرنسا معلناً أن الملك أكثر اهتماماً في المال من العدالة، وعديم الفائدة لرعاياه، الى جانب ذلك القى القبض على الاسقف غوشارد (Guichard) أسقف تروي (Troyes) عام 1308م، إذ اتهم باستخدام السحر الأسود من أجل قتل زوجة فيليب الملكة جين دي نافار في عام 1305م، وأنه يعد السم المركز من الضفادع والعقارب والعناكب لقتل الأمراء، كما استحضر الشياطين، وبصق على الصليب، علاوة على أنه قاتل ولص ولوطي ومرابي ومزور، فكانت هذه التهم جاهزة لكل من تتقاطع مصالح فيليب الوسيم معه بحيث اطلق نفس هذه الاتهامات على البابا بونيفاس الثامن (Boniface V111)، ولم يسلم من تلك الاتهامات حتى فرسان الهيكل كما ذكرنا انفاً فقد اعتقلهم بصورة جماعية في تشرين الاول عام 1307[5].

ومن جملة التهم التي لفقت لهم هي ممارسة اللواط والبصق على صور السيد المسيح وانكاره، وتحولهم الى عبادة الاصنام، ومن جانب اخر تميز عصر فيليب الوسيم بمحاولة الملك تقليم أظافر الطبقة الارستقراطية عن طريق تعزيز سلطان الملك واستقلال الدولة مع حفظ حقوق الطبقات الدنيا من المجتمع[6]، يزاد على ذلك استعان فيليب الرابع بجهود محاكم التفتيش[7] بخصوص انتزاع

(1) المصدر نفسه, ص226.

(2) أدوار بروي وآخرون، تأريخ الحضارات العام، القرون الوسطى، ترجمة يوسف داغر وفريد م. داغر، ج3، منشوات عويدات، بيروت- باريس، 1986، ص ص 434-435.

(3) جون دونس سكوت: ولدعالم اللاهوت والفيلسوف الفرنسيسكاني في اسكتلندا، واسم عائلته دونس مأخوذ بالأصل من مكان يسمى دونس في مقاطعة بيرويك (Beruick) باسكتلندا، ويرجح أنه ولد في الأعوام من (1263-1266)، ينتمي إلى الرهبنة الفرنسيسكانية التي أثرت تأثيراً واضحاً في الحركة الفلسفية في العصور الوسطى الذي يعد هو من رموزها، توفي عام 1308. للمزيد من التفاصيل ينظر: فردريك كوبلستون، تاريخ الفلسفة، ترجمة أمام عبد الفتاح أمام واسحاق عبيد، مج2، القسم الثاني من أوغسطس إلى دانر سكوت، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2010، ص235.

(4) ادوار بروي وآخرون، المصدر السابق، ص ص 434-435؛ محمود سعيد عمران، معالم تاريخ أوربا في العصور الوسطى، ص226. للمزيد من التفاصيل ينظر: كلود ديلماس، المصدر السابق، ص77-80.

(5) James Given,Power and Fear in Philip IV's France, Vol. 6,University of California, Irvine, 2006, pp. 89-90.

(6) Ibid, p 95.

(7) محاكم التفتيش: ظهرت محاكم التفتيش نتيجة الانتشار الهرطقة خاصة في الجنوب الفرنسي الذي كان أقرب من الشمال الفرنسي إلى طرق التجارة المهمة التي تربط الشرق بالغرب، فضلاً عن قرب الجنوب الفرنسي من الهرطقة المتفشية في شمال إيطاليا، وساعد على انتشارها فساد المؤسسة الدينية وتفشي الجهل فيها، فضلاً عن غض النظر من قبل رؤساء الكنيسة في الجنوب لدرجة ان تولوز أكبر وأغنى مدن الجنوب لم تجد أي مانع في أن تختار حكامها من المهرطقين، وقد اجتاحت الجنوب الفرنسي هرطقتان هما الهرطقة الكاثارية والهرطقة الوالد نسيانية، وتعرف الهرطقة الكاثارية بالهرطقة الالبجنسانية (Albigensian) لانتشارها في مدينة البى (Albi) القريبة من تولوز، إذ تؤمن بأن العالم المادي من خلق شيطان رجيم وليس من خلق الله سبحانه وتعالى وهي تشبه إلى حد ما مذهب ماني الذي انتشر قديماً في بلاد فارس، ويرجع وجودها إلى القرن الحادش عشر الميلادي، وعندما فشلت كل الجهود التبشيرية للكنيسة في روما في استئصال الهرطقة ظهر اتجاه أدى إلى استخدام القوة العسكرية لتحقيق الغرض سيما في القرن الثالث عشر، إذ تم اللجوء إلى الحملات الصليبية للوقوف بوجه المهرطقين والتي أهمها المعروفة باسم (الحروب الصليبية الاليجنيانية) للفترة من 1185حتى عام 1285، رافق ذلك تعيين محققين للتحقيق في أمور الهرطقة عام 1233 أول سابقة من نوعها والتي استمرت مستخدمة كل انواع القسوة والتعذيب تجاه المهرطقين، فقد دأب البابوات على

الاعترافات من خصومه نتيجة كثرة التعذيب الذي كانوا يتعرضون له، ومن حق تلك المحاكم اعتقال أي شخص يشتبه فيه دون أي اتهام رسمي ورد بحقه وكما اسلفنا كانت التهم جاهزة بالفساد والهرطقة[1].

أما من الناحية الادارية والتشريعية فقد تفرعت عن البلاط إدارات ذات اختصاص ما لبثت أن أصبحت مستقلة ودائمة[2]، منها البرلمان الذي كانت أول محاولة لإنشائه هي في عهد الملك فيليب أوغوست (Philippe Auguste) قبل رحيله إلى إحدى الحروب الصليبية إذ ينعقد أثناء غيابه مجلس قضائي في باريس مرة كل أربعة أشهر، غير أن البرلمان الذي يعني محكمة العدل العليا (Curio Regis Parloment) لم يتشكل في فرنسا إلا في عهد الملك فيليب الرابع[3]، فقد قام فيليب الرابع بحل الهيئة القضائية المعروفة باسم برلمان باريس المكون من الاقطاعيين وأحل محلها مجموعة قانونية تشبعت افكارها بالقانون الروماني وسيادة الملك فتكامل التفاف جهاز كامل من الموظفين حول الملك بإنشاء وزارة للعدل، وانشأ محكمة او غرفة مالية الغرض منها فض المشاكل المالية، ودعا مجلس الطبقات في اكثر من مناسبة، سيما عام 1314، عندما احتاج الى الاموال في حرب الفلاندرز، ولم يسمح لمجلس الطبقات بمناقشة القوانين بل رفع آرائهم الى الملك للنظر فيها، وعندما اعترض الاعضاء على احدى الضرائب اضطر الى الغائها وعدم التلاعب في العملة بعد ذلك[4]، كما تميز هذا الجهد نحو المركزية بإصلاح عسكري كبير، إذ لم يكن في المرحلة الاقطاعية جيش بالمعنى الحقيقي للكلمة، بل كل اقطاعي يخوض معركته الخاصة مجنداً ومجهزاً الجنود لحسابه الخاص، إذ لم تتضح الحاجة إلى الاستعانة بجيش دائم إلا في عهد فيليب الرابع، وكان التجنيد العسكري يقترن بجباية مالية، ساهمت في تعميم الخدمة العسكرية أو جزية معادلة على مناطق المملكة كافة، في ضوء الأمر الملكي الصادر عام 1304 وهو أول تدبير عام يتخذ في الشؤون العسكرية أدى إلى الانتقال من الجيش الاقطاعي إلى الجيش الوطني[5].

المبحث الثاني

سياسة فيليب الرابع تجاه البابوية1314_1296

أولاً– الصراع بين فيليب الرابع وبونيفاس الثامن بين عامي1296–1303م:

حاول البابا بونيفاس الثامن اثبات سلطة البابا من خلال إصدار مجموعة من المراسيم بعنوان رجال الدين – العلمانيين (Clericisl aicos) بين عامي 1296–1297[6]، كان أولها هو مرسوم شباط عام 1296 حظر فيه فرض الضرائب على رجال الدين، وكان قد سمح سابقاً في عدد من المناسبات للسلطات المدنية بفرض ضرائب على رجال الدين في أيام الطوارئ ولأي غرض حربي سيما الحروب الصليبية[7]، ولما كانت الحرب حتمية مع انكلترا آنذاك، وهناك حاجة ماسة لزيادة الدخل الملكي لزيادة النفقات العسكرية، عمد فيليب الرابع لفرض الضرائب على رجال الدين[8].

ارسال المحققين من الرهبان الدومينكان لما عرف عنهم من التقشف، وأطلق عليهم كلاب الله أو الصيادين، ولا يحق لهم مطاردة المسلمين واليهود، وكانت هذه المحكمة تتكون من (12) رجلاً يختارهم حاكم المدينة، وتعرض أسماء المرشحين على الأسقف وهيئة المحلفين، وكان يحكم على المهرطقين بعد إدانتهم بالسجن مدى الحياة أو الاعدام. ينظر: محاكم التفتيش في فرسا، ترجمة رمسيس عوض، المجلس الاعلى للثقافة، القاهرة، 2005، ص ص 35-75؛محمود سعيد عمران، حضارة أوربا في العصورالوسطى، ص ص 324-326.

(1) James Given,Op.Cit.p.95.

(2) ادوار بروي وآخرون، المصدرالسابق، ص411.

(3) كلود ديلماس، المصدر السابق، ص ص 60-61.

(4) سعيد عبد الفتاح عاشور, المصادر السابق, ص ص 242-243؛ كلود ديلماس، المصدر السابق، ص61.

(5) كلود ديلماس، المصدر السابق، ص61.

(6) Mark Lowry, Boniface, Boniface VIII and Phillip IV: conplict Between Church and State, Seminar Chst 499W, History Department Western Oregon University, June, 2008, P.8.

(7) نورمان ف. كانتور، المصدر السابق، ص648 ؛ سهيل زكار، الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية (مشاريع ما بعد الحملة السابعة)، ج36، دمشق، 1999، ص3182.

(8) وهي الحرب التي كادت أن تشتعل بين ملك فرنسا فيليب الرابع وملك انكلترا ادوارد الأول، من اجل الظفر بدوقية جاسكوني، نتيجة قيام بعض الصيادين هناك بالاعتداء على الصيادين النورمان عام 1293، ورفضهم الامتثال لأحكام الحاكم الفرنسية، فدعى فيليب الرابع الملك ادوارد الأول من أجل استجوابه بشأن تعهداته الاقطاعية، لكن ادوارد الاول كان مشغولاً بحربه ضد اسكتلندا، وارسل اخاه إلى البلاد الفرنسي وسلم بعض القلاع على الحدود ضماناً له، فاستولى فيليب على القلاع فأعلن ادوارد تحلله من ولائه لملك فرنسا، وعقد تحالف مع الامراء الالمان والفلمنكيين ضده، رد فيليب على ذلك بالتحالف مع

أثارت تلك المراسيم ردود فعل خاصة عند فيليب الرابع إذا قام مستشاريه بحملة من المضايقات للمصرفيين الايطاليين وطردهم من باريس، ومنعوا تصدير الذهب والفضة وأي اموال خارج فرنسا ليحرموا البابوية من موارد مالية مهمة، وأنهم سوف يعدون رجال الدين اعداءً للدولة إذا لم يدفعوا الضرائب لتمويل الحرب مع انكلترا[1].

نتج عن المراسلات الحادة والمخففة بين الطرفين أن أصدر البابا بونيفاس مرسوماً في أيلول عام 1296 اعترف فيه بمشاعر الصداقة نحو فرنسا، وانه ليس لديه أي اعتراض على فرض الضرائب على رجال الدين أثناء الطوارئ الوطنية إذا ما تم الحصول على موافقته أولاً[2]، وقد كان لسوء العلاقة التي جمعت البابا بونيفاس مع الكردينالين جياكومو (Giacomo) وبيترو كولونا (Pietro Colonna)[3]، دوراً كبيراً في أن يسعى البابا بونيفاس إلى التصالح مع الملك فيليب الرابع الذي رحب بالكردينالين في فرنسا، وأخذا يعملان على نشر التهم ضد البابا، وللحد من ذلك أصدر البابا مرسوماً في شباط 1297 يبطل مرسوم (Clericisl aicos) ويسمح بتقديم هبات تطوعية من قبل رجال الدين إلى الملك قبل الحصول على الموافقة البابوية، ثم أعقبه مرسوم آخر في ايار من نفس العام يفرض على أساقفة فرنسا اعطاء العشور للملك، وجاء المرسوم الأخير في تموز عام 1297 اعطى لفيليب الرابع الحق في تقرير وجود طوارئ وطنية تسوغ فرض الضرائب دون الحصول على موافقة البابا، وازاء ذلك أصبح فيليب الرابع اكثر انفتاحاً على الجهود التي يسعى بها بونيفاس للتوسط في الحرب[4] مع الملك ادوارد الأول (Edward I) لوضع حداً لها عام 1299[5]، وازاء حسن النوايا هذه وافق فيليب الرابع ان تخضع رعاياه لسلطة المحققين ومحاكم التفتيش، وهو ما دفع البابا إلى اصدار مرسوم في آذار عام 1298 يأمر فيه بخضوع السلطة المدنية خضوعاً مطلقاً لأوامر المحققين حتى لا تقع على افرادها عقوبة الحظر الكنسي، وابدى الملك فيليب الرابع موافقته على ذلك حتى أنه لم يعد يوفر الحماية لليهود من محاكم التفتيش وهو الذي كان ومنذ عام 1290 يأمر بعدم مثول اليهود أمام أي محكمة إلا المحاكم الملكية[6]، مقابل مقاسمتهم أرباحهم[7].

استغل البابا بونيفاس في عام 1300 الاحتفال بمناسبة اليوبيل البابوي، فقام باستعراض كبير في روما مؤكداً على سلطته على الجميع بحملة سيفين يشيران إلى السلطة الدينة والزمنية[8]، وفي المقابل استمر الملك فيليب في فرض الضرائب على رجال الدين، ولهذا قرر البابا بونيفاس الثامن أن يرسل عام 1301 رسالة فيها إنذار إلى الملك فيليب، ووقع اختياره على أن يكون حاملها شخصية

اسكتلندا ضد انكلترا وهاجم جوين والفلاندرز حليفة انكلترا عام 1297، وانتهى الموقف نتيجة تدخل البابا بونيفاس وعقد الصلح المؤقت عام 1298 فتخلى ملك انكلترا عن دعم الفلاندرز وتخلى فيليب عن دعم اسكتلندا. لمزيد من التفصيلات ينظر:

R.W.Southern,Western Society and the Church in the Middle Ages,Qrand Rapids, Mich, Erdmans,1970,P. 40 ; موريس بيشوب، تاريخ اوربا في العصور الوسطى، ترجمة: علي السيد علي، المجلس الاعلى للثقافة، القاهرة، 2005، ص ص71-72.

(1) نورمان ف. كانتور، المصدر السابق، ص648 ؛

Denton, S., Tatation and the comflict between Philip the Fair and Bonface VIII, Oxford university Pres, Oxford, 1997, P. 46.

(2) سهيل زكار، المصدر السابق، ص3184.

(3) كانت أسرة كولونا مقربة من البابا سلستين الخامس، وبعد ان تنازل عن منصب البابا، عقد مجمع للكرادلة وكانت اسرة كولونا تربطها صلة طيبة بالبابا الجديد بونيفاس الثامن، لكن سرعان ما تغير موقفها منه، وأصبحوا ساخطين عليه، وهناك بعض المؤرخين اثبتوا وجود خيوط للخيانة من قبل أسرة كولونا اذ كان لها اتصالات مع الملك الفرنسي فيليب منذ عام 1296، الذي دعم أعمالهم وقررت اسرة كولونا الطعن في فوز بونيفاس الثامن بمنصب البابوية عند البابا السابق سلستين لكن دون جدوى، ومن جانبه بدأ البابا بونيفاس الثامن بمحاربة اسرة كولونا وحصل على بعض اراضيهم عام 1299، وقد وظف خزينة البابوية لخدمة طموحه في القضاء على نفوذ تلك الاسرة. للمزيد من التفصيلات ينظر:

T.S.R., Boase, Boniface CIII, London, Constable, 1933, P. 164.

(4) محاكم التفتيش في فرنسا، المصدر السابق، ص78-79 ؛ سهيل زكار، المصدر السابق، ص ص3184-3185.

(5) حكم ادوارد الاول انكلترا بين عامي 1272-1307، كان رجلاً طموحاً، قوي الإرادة، خبيراً بالفنون العسكرية، يعد عهد ادوارد الأول من اكثر العهود نجاحاً في تاريخ انكلترا، وذلك يعود إلى انه اعاد تنظيم الجيش واستطاع فتح ويلز وكسب اسكتلندا عام 1284، رفض دفع الجزية لتي تعهد بها اسلافه للبابوية، والعمل الأهم في عهده هو نمو البرلمان الانكليزي الذي بدأ عام 1290 باجتماع رجال الدين والبارونات ثم تطور إلى البرلمان المثالي عندما عقد عام 1295 بحضور النبلاء والفرسان والاساقفة إذ قرر البرلمان عدم فرض ضرائب الا بموافقة البرلمان، كما وضعوا مبدأ ان ما يمس الناس جميعاً يجب ان يوافقوا عليه جميعاً، علاوة التطورات الأخرى التي رافقت عهده فيما يختص بالإجراءات القانونية والتحقيق القضائي، وصدور قانون التجار عام 1283، وعهد التجار عام 1302، لدرجة ان انكلترا عند وفاة ادوارد الأول عام 1307كانت تتمتع بحكم برلماني سليم وقانون تجاري عادل، فضلاً عن حكم قوي وفق بين الحرية والقانون. ينظر: محمود سعيد عمران، معالم تاريخ اوروبا في العصور الوسطى، ص265.

(6) محاكم التفتيش في فرنسا، المصدر السابق، ص78-79 ؛ سهيل زكار، المصدر السابق، ص ص3184-3185.

(7) سعيد عبد الفتاح عاشور، المصدر السابق، ص240.

(8) ستيفن هوارث، المصدر السابق، ص301.

غير مرحب بها وسيئة السمعة هو برنارد ساسيت اسقف باميه وكان عدواً لفيليب الرابع، الذي سرعان ما أمر بإلقاء القبض على برنارد ساسيت بتهمة الخيانة وبيع المناصب الدينية وممارسة الرذيلة والشعوذة، الأمر الذي دفع بالبابا بونيفاس إلى إصدار ثلاث مراسيم في كانون الأول من العام نفسه، الغت كل التعديلات في المراسيم السابقة، فضلاً عن التأكيد بعبارات واضحة على سيادة البابا على جميع الملوك، كما استدعى الاساقفة الفرنسيين لعقد مجمع كنسي في روما لإيجاد وسائل لإصلاح كل من ملك ومملكة فرنسا، حتى انه تم توجيه دعوة إلى الملك فيليب للحضور[1]، والأهم هو ما جاء في المرسوم الثالث والذي حمل عنوان اصغاء الابن (Ausculta Fill) فقد كان بمثابة رسالة من البابا إلى الملك فيليب الرابع مفادها تقديم بعض النصائح له باعتبار البابا سلطة عليا بقوله: "**اسمع أي بني إلى وصايا أبيك... ولتأخذ جماع قلبك بتقاليد السيد، الذي يحتل على الارض مكان الرب ... الذي هو وحده السيد والرب**"[2]، فضلاً عن خطاياه بوصفه حاكماً كاثوليكياً هو مثالاً سيئاً لجميع المسحيين، وانه بتحديه للكنيسة هو بمعنى التجاوز على الله وشريعته، وأشار أيضاً إلى عدم جواز الحط من قيمة العملة، والتسلط على رعاياه من قبلا مستشاريه العلمانيين، ونصحه بالابتعاد عن رفاق السوء الذين ابعدوه عن الكنيسة، ولم يعرف أحد مصير ذلك المرسوم فربما احرقه الملك فيليب الرابع، أو جرى تزويره من قبل مستشاريه من أجل ان لا يكون له صدى في الشارع الفرنسي خلال تلك المرحلة[3].

قابل فيليب الرابع هذا التحدي بمنع رجال الدين الفرنسيين من الذهاب إلى روما، وأيضاً وجه دعوة لاجتماع مجلس الطبقات الفرنسي، إذ جرى توزيع مناشير هوجم فيها البابا بونيفاس الثامن بين النواب، كما استمعوا إلى خطب رنانة من المقربين من الملك سيما مستشاره المقرب المحامي وليم بلازيان (William Blzian)، فنتج عن ذلك الاجتماع مطالبة البابا باحترام الادارة السياسية في فرنسا، كما وجه رجال الدين رسالة إلى البابا يرجون منه ان يعمل للصالح العام، وللوئام، تزامن ذلك مع شن حملة من الاتهامات ضد البابا ومنها عدم ايمانه بخلود الروح، وعدم ممارسته طقوس القداس بصورة صحيحة، واهماله للصوم، ولديه شيطان خاص، ومشاورته للسحرة[4]، فضلاً عن اتهامه بالتدبير والتخطيط لقتل البابا الذي سبقه سلستين الخامس[5].

عقد المجمع الكنسي الذي دعا له بونيفاس في تشرين الأول عام 1302، وكان عدد كبير من رجال الدين الفرنسيين بين الحضور، وصادق المجمع على إصدار مرسومين أمر أولهما بإصدار الحرمان الكنسي بحق كل شخص يقوم بالتدخل في أعمال الكنيسة، والآخر هو المرسوم الذي عرف بعنوان الواحد المقدس (Unam Sanctam) لإرساء سلطة الكنيسة[6]، مستنداً على نظرية السيفين[7]، أي ان السيف الروحي والسيف الزمني بيد نائب المسيح على الأرض، وأنه اذا كان هناك ملك لا يستخدم السيف المدني الذي اعير اياه يمكن للبابا أن يخلعه عن عرشه[8]، مستخدماً العبارة الشهيرة " **لا وسيلة للخلاص خارج الكنيسة**[9].

---

(1) سهيل زكار، المصدر السابق، ص ص3185-3186 ؛ ستيفن هوارث، المصدر السابق، ص301.

(2) رأفت عبد الحميد، الفكر السياسي الاوربي في العصور الوسطى، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2012، ص66.

(3) Mark Lowry, OP, Cit, PP. 12-13.

(4) سهيل زكار، المصدر السابق، ص3186 ؛

Httb\ www. Glbet. Org\ masonictxte\ Philip% 20 IV %20 Fair. PDF.

(5) سلستين الخامس: وهو ناسك ايطالي معروف وزعيم روحي ذائع الصيت، تم انتخابه للكرسي البابوي عام 1294 كحل توفيقي مؤقت نتيجة الخصومات التي نشبت داخل هيئة الكرادلة، إذ لم يستطيع أي مرشح من الحصول على ثلثي الأصوات اللازمة لفوزه، إلا أن سلستين الخامس قد عانى من الارتباك في واجباته البابوية، وبعد شهور قلائل من الفوضى في البلاط البابوي قام بهجر العرش البابوي مما أدى إلى فضيحة لأنه لم يحدث لذلك سابقة، برر سلستين ذلك بأن صوتاً ملائكياً طلب منه التنازل، على ان اغلب الشائعات التي انتشرت وقتها تفيد بأن هذه الرسالة انما جاءت بتدبير من الكردينال بندكت جايتاني (Bendict Gatani) زعيم احدى الفرق المشاركة في فئة الكرادلة عبر انبوب خفي، توقفت تلك الشائعات عندما انتخب جايتاني للعرش البابوي تحت اسم بونيفاس الثامن، توفي سلستين بعد ذلك بقليل فزعم الكثير انه مات مسموماً بأوامر من البابا الجديد، وهو ما جعل البابوية في وضع مكشوف سيما مع ايمان بونيفاس الثامن بنظرية سمو السلطة البابوية على السلطة المدنية. ينظر: نورمان ف. كانتور،المصدر السابق، ص ص646-647.

(6) سهيل زكار، المصدر السابق، ص3187.

(7) نظرية السيفين: ظهرت أواخر القرن الخامس الميلادي واقرها البابا جيلاسيوس الأول فيما يتعلق بفصل السلطتين الدينية والدنيوية التي سماها السيفين، فشؤون الروح والخلاص الابدي هو من اختصاص الكنيسة، أما مجريات الامور الدنيوية هي من اختصاص السلطة الزمنية، فالسيفان الروحي والمادي كلاهما ينتهيان إلى الكنيسة، ولتأكيد ذلك ذكر البابا أن الملك تسلم السيف من البابا، للمزيد ينظر: جون لوريمر، تاريخ الكنيسة، جمع وترجمة: عزرا مرجان، ج4، دار الثقافة، القاهرة، 1988، ص ص30-31 ؛ ناظم عبد الواحد الجاسور، موسوعة علم السياسة، دار مجدلاوي، عمان، 2009، ص ص370- 371.

(8) نورمان ف. كانتور، المصدر السابق، ص65.

(9) موريس بيشوب، المصدر السابق، ص348.

دفع ذلك الأمر بالملك فيليب الرابع إلى اتهام البابا بونيفاس الثامن بالسيمونية[1]، وتم اتخاذ قرار مفاده اعتقال البابا وان يقوم بونيفاس بنفسه للدعوة لعقد مجمع كنسي للحيلولة دون ممانعة رجال الدين الاعتراف بمجمع يقوم بالدعوة اليه انسان لا يحمل اللقب البابوي، وتمهيداً لذلك ابرمت معاهدة مع الملك ادوارد الأول في ايار 1303 أعاد فيها فيليب الرابع أكيتان (Aquitaine) لإنكلترا، أما الخطوة الثانية فهو عقد اجتماع في باريس لمجلس مستشاري الدولة في ايار ايضاً[2]، وفيه قرأ أهم مستشاري الملك المقربين منه وليم دي نوجاريه قائمة طويلة من الاتهامات موجهة للبابا بداية الهرطقة والاغتيال حتى السحر الاسود[3]، وهي التهم التي أعلن عنها سابقاً الكرادلة المنفيان من اسرة كولونا.

اتجه الملك فيليب الرابع وبعد حصوله على تأييد مستشاري الدولة إلى محاولة الحصول على تأييد ودعم الرأي العام الفرنسي، وذلك من خلال اجتماع عقد في اللوفر في حزيران عام 1303، وهنا ظهر دور مستشاره بلازيان الذي كان بارعاً في اقناع الجمهور العريض بما تلاه عليهم من لائحة ضمت تسعاً وعشرين تهمة مؤكدة على حد قوله ضد البابا، نتج عن ذلك ان اعلن رجال الدين الفرنسيين عن تأييدهم للعرش فضلاً عن طبقات الشعب الأخرى[4].

دفعت كل تلك الأحداث بالبابا إلى استخدام سلاحه الأخير وهو التجهيز لمرسوم بابوي يعلن فيه حرمان الملك فيليب الرابع كنسياً وخلعه من العرش، وقد أعلن عن نيته تلك في مجلس عقده في أناني (Anagni) في آب عام 1303، إذ أوضح وبشكل قاطع براءته من كل التهم التي نسبت له، وأنه سيعلن عن مرسوم الحرمان بحق الملك الفرنسي والفرنسيين ايضاً في ايلول القادم[5].

ساهم ذلك الاعلان في تصعيد الموقف المتأزم بين الطرفين، إلا انه لم يكن من المتوقع في تفكير البابا أن يتخذ الملك فيليب الرابع خطوة جريئة كالتي حدثت بأن ارسل مستشاره دي نوجاريه على رأس فرقة عسكرية في مهمة سرية إلى ايطاليا للقبض على البابا والعودة به إلى فرنسا لمحاكمته، فاستطاع تنفيذ المهمة بمساعدة الاعداء الشخصين من النبلاء الايطاليين سيما اسرة كولونا المعادية لنهج البابا الذي لم يتحمل الذل الذي مني به بسبب تلك الحادثة، إذ لولا تدخل اهالي اناني واقاربه من النبلاء كان من الصعب انقاذه وأن يكون مصير تلك المحاولة الفشل[6].

تركت تلك الحادثة أثراً في قدرة البابا المسن على التحمل، فالتمس المساعدة من أسرة الكاردينال أورسيني (Orsini) في روما، وقد كان متعطشاً للانتقام من الملك فيليب الرابع وبسبب جهوده لتحقيق هذه الغاية لم يحظى بتعاون تلك الأسرة التي احتفظت به اشبه بالسجين في الفاتيكان للحد من جهوده تلك حتى وفاته في تشرين الأول عام 1303[7].

ويمكن القول انه لا يوجد أدل على التغيير الذي طرأ على روح العصر آنذاك أبلغ من قيام الملك فيليب الرابع بمحاولة اعتقال البابا عنوة إذ لم يتعرض إلى أي احتجاج ديني في فرنسا حتى عند قيامه بإحراق المراسيم البابوية على رؤوس الاشهاء، واستدعائه لمجلس طبقات الامة لمؤازرته ضد البابا الذي لا ينبغي أن يكون برأي فيليب الرابع سوى اسقفاً في روما[8].

ثانياً- سياسة فيليب الرابع تجاه البابوية بعد بونيفاس الثامن:

أسرع مجلس الكرادلة باختيار شخص آخر لمنصب البابوية فاختاروا في الشهر نفسه الذي توفي فيه البابا السابق[1] راهب ايطالي من طائفة الدومنيكان[2] يدعى نيقولا بوكاسيني متخذاً اسم بندكت الحادي عشر، في الوقت الذي ما تزال فيه مراسيم بونيفانس

(1) السيمونية: جاءت التسمية من احدى روايات الانجيل، وموجزها ان سيمون الساحر حاول اغراء القديس بطرس ببذل المال مقابل أن يبارك له عمله فجاء رد القديس فلتكن فضتك معك للهلاك لأنك ظننت أن تتقن موهبة الله بدراهم. للمزيد من التفصيلات ينظر: مفيد الزيدي، موسوعة تاريخ اوروبا، ج1، دار أسامة للنشر والتوزيع، عمان- الاردن، 2003، ص286.
(2) سهيل زكار، المصدر السابق، ص3188.
(3) نورمان ف. كانتور، المصدر السابق، ص650.
(4) سهيل زكار، المصدر السابق، ص3189.
(5) ستيفن هوارث، المصدر السابق، ص303 ؛ سهيل زكار، المصدر السابق، ص3189.
(6) نورمان ف. كانتور، المصدر السابق، س561 ؛
Denton, S., OP, Cit, P. 51.
(7) سهيل زكار، المصدر السابق، ص3190.
(8) هـ. ا.ل. فشر، تاريخ اوربا في العصور الوسطى، ترجمة: محمد مصطفى زياده وأخرون، ج2، دار المعارف، مصر، 1954، ص293.

ضد فيليب قائمة، ولأجل ذلك جدد فيليب الرابع التهم ضد البابا بونيفانس، فضلاً عن تعيين فيليب بحثه مؤلفة من أربعة اشخاص كان دي نوجاريه من بينهم ليتلقى ثلاثة منهم التحليل للملك من كل حرمان كنسي سابق، سيما بعد تحمل نوجاريه المسؤولية كاملة عن الهجوم في اناني، فاستجاب يندكت الحادي عشر بسرعة لتلك المطالب الأولى في آذار عام 1304، كما انه وليتجنب القيام بالحكم على سلفه قدم تنازلات اضافية فقد الغى مراسيم بونيفاس ضد الجامعات الفرنسية والكنائس، ومحا جميع المراسيم التي كانت ضد حقوق الملك الفرنسي، وحلل الأساقفة الفرنسيين الذين اطاعوا اوامر الملك بعدم حضور المجمع الكنسي عام 1302، فضلاً عن منح فيليب حق فرض العشر لمدة عامين مع حق التعيين في الوظائف الكنسية التي ستكون شاغرة خلال السنوات الثلاث القادمة[3].

على الرغم مما قدمه البابا يندكت الحادي عشر من تنازلات استجابة لمطالب فيليب الرابع إلا أنه في حزيران عام 1304 أصدر مرسوماً ندد فيه وبشدة بكل من دي نوجاريه وشركائه في الهجوم بجانب حرمان دي نوجاريه من الكنيسة، مع عدم اعطائه أي فرصة للاستئناف قبل الإعلان الرسمي لذلك، الذي لم يأتِ ابداً لأن البابا يندكت توفي في تموز 1304 جراء مرض مجهول، ولم يتم اثبات الاشتباه بالسم، ولم تدم بابويته اكثر من 8 أشهر ونصف[4].

بالمقابل أسرع فيليب الرابع إلى الاحتفاظ بدي نوجاريه في الخدمة ومنحه جائزة مالية كبيرة من أجل خدماته المخلصة في قضايا ذات أهمية للعرش وللدولة[5].

وضمن السياق نفسه، نشب صراع مرير في هيئة الكرادلة بين الكرادلة المتأثرين بالنفوذ الفرنسي وبين الكرادلة المؤيدين لذكرى بونيفانس الثامن، حتى تم عقد اتفاق وسط بين الطرفين أدى إلى انتخاب كبير أساقفة بوردو (Bordeaux)[6] برتراند دي غوث (Bertrand de Gott) لمنصب البابوية [7]، وهو من تلامذة البابا بونيفاس المخلصين، إلا أنه كان على اتصال سري مع الملك فيليب الرابع، الذي أبدى موافقته على انتخاب دي غوت لكرسي البابوية، تحت اسم كليمنت الخامس (Clement V)، وتم تنصيبه في ليون بفرنسا في تشرين الثاني 1305، ومتخذاً من مدية أفينون (Avignon) على نهر الرون مقراً جديداً للبابوية بحجة الظروف السياسية المضطربة في الولايات البابوية، مما عرف (بالأسر البابوي)، إذ عدت بابوية افينون والتي استمرت اثنتي وسبعون عاماً تعجيلاً بتدهور البابوية في جميع انحاء اوربا، فقد شجع ذلك الكنيسة الانكليزية على الانسحاب من نطاق السيطرة البابوية، سيما بعد أن اقدم كليمنت الخامس على الاستجابة لتهديد مستشاري فيليب الرابع له بمحاكمة البابا بونيفاس الثامن غيابياً في حال لم يتم إعلان براءة دي نوجاريه والغاء السلطة المقدسة الواحدة، حتى انه اقدم على اعادة الكرادلة الذين تواطؤا على اعتقال بونيفاس إلى مناصبهم[8].

---

(1) سهيل زكار، المصدر السابق، ص3190.

(2) طائفة الدومنيكان: يرجع تأسيس هذه الطائفة إلى عام 1215 إلى القديس دومنيك (Dominic) (1170-1221) الاسباني الاصل، كان قد تعلم في احدى المدارس اللاهوتية ثم أصبح من كبار موظفي الكنيسة في اسبانيا، كرس حياته في حماية الدين المسيحي من دعاة الهرطقة التي اجتاحت جنوب فرنسا، اسس هيئة للوعظ والارشاد يكون الفقر عروتها الوثقى وتكون طاعتها لرئيس هيئتها وللبابوية مطلقة، وقد بارك البابا أنوسنت الثالث ذلك المشروع عام 1215، واطلق عن اتباع القديس دومنيك اسم (الاخوان الواعظين)، و(الاخوان السود) اشارة إلى لون طيالسهم، كذلك اسم (الاخوان المتسولين) إشارة إلى اتخاذهم الفقر والتسول وسيلة للعيش والاتصال بالناس، ولم يلبثوا ان اصبحوا من اهل الثروة مع نهاية القرن الثالث عشر. لمزيد من التفصيلات ينظر: محمود سعيد عمران، حضارة اوربا في العصور الوسطى، ص119- 112.

(3) سهيل زكار، المصدر السابق، ص3191-3193.

(4) ستيفن هوارث، المصدر السابق، ص305.

(5) سهيل زكار، المصدر السابق، ص3193.

(6) نورمان ف. كانتور، المصدر السابق، ص652.

(7) ولد في فلنراد جنوب غرب فرنسا عام 1264، ونشأ وسط عائلة دينية كاثوليكية، وبعد عقد مجمع الكرادلة 1304-1305 تم انتخابه لمنصب البابوية، وتتوجيه في ليون في تشرين الثاني عام 1305 وبحضور الملك الفرنسي، توفي في نيسان عام 1314. للمزيد من التفصيلات ينظر:
Sophia Menacha, Clementv, Cambridge University Press, Cambridge United Kingdom, 1998.

(8) عبد الحميد البطريق وعبد العزيز نوار، التاريخ الاوربي الحديث من عصر النهضة حتى اواخر القرن الثامن عشر، دار الفكر العربي، القاهرة، 1997، ص83؛ نورمان ف. كانتور، المصدر السابق، ص652.

وهكذا انتصر فيليب الرابع على البابوية بصورة لم ينتصر بها ملك من قبل، وانقلب الوضع في هذه المرحلة وأصبح رجال القانون هم الحاكمون بعد ان استعان بهم فيليب الرابع على العكس من العهود السابقة في أوروبا، إذ كانت الاستعانة برجال الدين لضرب الإقطاع[1].

وهكذا كانت ملامح الحكم في فرنسا ومع مستهل القرن الرابع عشر علمانية أوتوقراطية مركزة في شخص الملك[2].

ثالثاً- موقف فيليب الرابع من هيئة فرسان الهيكل (الداوية):

تعد هيئة فرسان الهيكل من الهيئات العسكرية الرهبانية التي كان لها دور لا غبار عليه خلال مرحلة الحروب الصليبية، وفقدت هذه الهيئة أهميتها العسكرية سيما بعد سقوط عكا عام 1291 بيد المسلمين، واهتم افرادها بالنشاطات المالية والمصرفية وتكونت لديهم ثروة طائلة[3]، وكانت صلة الملك فيليب بتلك الهيئة صلة وثيقة حتى عام 1305 حتى أن مقرهم الحصين في باريس قد اتخذ مستودعاً للموارد الملكية المالية قبل تأسيس الخزانة الملكية في اللوفر، وكانت تلك الهيئة تقوم بإقراض المال للملك بالفائدة، فضلاً عن تأييدهم له في صراعه مع البابا بونيفاس الثامن عام 1302[4]، وكان فيليب وحتى نهاية 1304 قد ثبت جميع حقوق فرسان الهيكل مع الوعد بأن القضاء الملكي لن يحتجز ممتلكاتهم المنقولة وغير المنقولة[5].

كما شكلت قوة عسكرية لا يستهان بها عدتها من جيش خاص يقدر بالآلاف، لذلك كان قرار الملك هو هدم تلك الهيئة والقضاء عليها، خاصة بعد أن رفض طلبه للانضمام لتلك الهيئة عام 1305 الذي تقدم به بعد وفاة زوجته من العام نفسه، وأيضاً عرض تنازله عن العرش لابنه في حال أصبح عضواً وقائداً لتلك الهيئة، ويمكن أن نرجح سبب رفض طلبه ان أعضاء تلك الهيئة يعلمون ان طلب فيليب الرابع لم يكن من قبل التواضع، وانما لحاجته لقوة اكبر، فهو في حال انضمامه إلى الهيئة سيتمكن من الوصول إلى مدد منتظم من المال غير محدود، فضلاً عن هيمنته إلى اراضي في جميع أجزاء اوربا وما وراءها مما يضيف مجد دائم لآل كابيه، كما أنه اضاف نقطتين تضمن تحكمه التام وهي أن جميع دخول الكنيسة يجب تثبيتها، وأي فائض يذهب إلى (الملك المحارب) للمساعدة في إعادة غزو الاراضي المقدسة، وان يكون للملك المحارب أربعة أصوات في الانتخابات البابوية[6].

نتيجة لذلك لم يكن امام فيليب الرابع لإزالة عقبة وجود تلك الهيئة أمام السلطة الملكية المطلقة له إلا باللجوء إلى البابا ليضمن نجاح ذلك الهدف، فأعد مع مستشاره دي نوجاريه خطة لذلك عن طريق توظيف شهادة شخص اسمه اسكوي دي فلوبرانو (Esquieu de Floyrano) عن قيام فرسان الهيكل بممارسات شاذة، فعرض تلك الاتهامات على البابا كليمنت الخامس عند اجرائه محادثات معه حول تجديد مشاريع الحروب الصليبية، ولما كانت هذه المشاريع تتطلب التشاور مع الهيئات العسكرية آنذاك ومنها هيئة الداوية[7]، استدعى البابا في عام 1306 قائد هيئة الداوية جاك دي مولي (Jacques de Molly)[8]، لعقد مؤتمر في بواتييه (Poitiers)، تزامن ذلك مع وضع فيليب الرابع الاتهامات ضد فرسان الهيكل أمام مجلس الطبقات لنيل تأييد المجلس في حملته ضد تلك الهيئة، مع

(1) محمود سعيد عمران، معالم تاريخ اوربا في العصور الوسطى، ص225 ؛ ول ديورانت، المصدر السابق، ص237.
(2) هـ.ا. فشر، المصدر السابق، ص295.
(3) سعيد عبد الفتاح عاشور، المصدر السابق، ص ص241-242 ؛ جوناثان رايلي سمث، تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة: قاسم عبده قاسم، ج2، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2009، ص57.
(4) سهيل زكار، المصدر السابق، ص3195.
(5) ستيفن هوارث، المصدر السابق، ص319.
(6) المصدر نفسه، ص ص306- 308.
(7) سهيل زكار، المصدر السابق، ص3195.
(8) جاك دي مولي: وهو القائد الثالث والعشرون والأخير لهيئة فرسان الهياكل (الداوية)، ولد عام 1244 في الجزء الشرقي من فرنسا، قبل في الهيئة عام 1265 وكان فارساً مدرباً فقد تم ارساله بسرعة إلى الاراضي المقدسة، انتقد الطريقة التي تدار بها الهيئة ودعى للإصلاح فيها، قضى عشرون عاماً في الاراضي المقدسة وهي العشرون عاماً الأخيرة في حياة المملكة الصليبية في عكا، انتخب قائداً لتلك الهيئة عام 1293 في قبرص، بدأ عمله برحلة طويلة يبحث فيها عن دعم عملي من البابا وملوك اوروبا فزار اسبانيا وفرنسا وايطاليا وانكلترا بين عامي 1293-1296، ساعد في انتخاب البابا بونيفاس الثامن لمنصب البابا، لم تسفر رحلته عن شيء مهم، كما أنه كان ضيق الافق، يفتقر للذكاء والخيال لذلك لم يحدث تغيير يذكر لهذه الهيئة. ينظر: ستيفن هوارث، المصدر السابق، ص ص314-315.

استمراره بالتظاهر بالبحث في مشروع الحملة الصليبية مع كل من كلمنت الخامس ودي مولي الذي استقبله فيليب الرابع بكل حفاوة، فضلاً عن الاهتمام بالشائعات المتعلقة بالهيئة[1].

مارس فيليب الرابع في صيف 1307 مزيداً من الضغط على البابا ليتخذ اجراء حاسم في قضية فرسان الهيكل، إذ طالب بعقد مجمع كنسي لمحاكمة البابا بونيفاس الثامن كورقة ضغط على البابا كليمنت الخامس الذي حاول التخلص من القيام بأي اجراء ضد فرسان الهيكل لكن اضطر في اسب عام 1307 أن يقدم تنازلات اخرى لفيليب الرابع بالبحث في التهم الموجهة إلى الفرنسان والتي تتركز حول اتهامات بالهرطقة مما يتطلب محاكمتهم أمام محكمة التفتيش[2].

انتشرت بسرعة تلك الاخبار في اوساط هيئة فرسان الهيكل مما نتج عنه فرار عدد قليل من أفرادها، مما جعل الملك فيليب الرابع يتخذ اجراء سري بترفيع دي نوجاريه إلى مرتبة الحافظ للختم العظيم الذي ختم به في ايلول عام 1307 تفويضاً إلى جميع السلطات المسؤولة في فرنسا باعتقال جميع اعضاء هيئة الداوية على أن لا يفتح ذلك التفويض الا في يوم 12 تشرين الأول، وقد سارت التطورات وفق ما كان يريد فيليب الرابع ومستشاره دي نوجاريه حتى ان عند وفاة زوجة اخ الملك فيليب الرابع كاترين دي فالوا (Catherine de Fello) في بداية تشرين الأول وفي جنازتها اعطي لقائد فرسان الهياكل دي مولي شرف حمل كفنها في 12 تشرين الأول بدون وجود ما يثير الشك بأن فجر يوم 13 تشرين الأول سيقوم رجال الملك بالقبض على دي مولي وعلى جميع فرسان الهياكل الاخرين الخمسة الاف في طول فرنسا وعرضها، وسجن المعتقلون في سجون منفردة ومغلقة[3].

أوجدت المفاجأة في العمل والدقة في تنفيذه غضباً عاماً، ولكي يطمئن المواطنين ولإثارة مواقف معادية ضد الداوية دعا فيليب الرابع في اليوم نفسه الذي جرى فيه الاعتقال إلى اجتماع في كنيسة نوتردام، ضم أعيان رجال الدين والأكاديميين ثم عقد في اليوم الثاني اجتماع مماثل في اللوفر مستعرضاً فيهما المشكلة كلها، مستخدماً في الوقت نفسه التعذيب لانتزاع الاعترافات التي ليس لها أساس في الصحة كإنكار المسيح ثلاث مرات من قبل أي مرشح جديد للانضمام لهم، وان يبصق على الصليب، كما ان العضو القديم يتعانق مع المرشح الجديد بشكل غير لائق[4]، الامر الذي اثار امتعاض البابا الذي لم يتوقع هذه الاجراءات القاسية من قبل التاج مع هيئة مازالت تحت الاشراف القضائي للبابا، ولذلك علق في 1308 اعمال محكمة التفتيش، فضلاً عن نقل المتهمين ليكونوا تحت اشرافه القضائي المباشر سيما الشخصيات الرفيعة في تلك الهيئة، فجاءت الخطوة الاخرى من قبل الملك فيليب رداً على محاولات البابا ابداء المرونة مع فرسان الداوية بأن يثبت ان محاكمتهم هي من صلاحيات السلطة المدنية أيضاً فوجه استفساراً بذلك إلى جامعة باريس، بأن هل يمكن السماح لهذه الهيئة بالبقاء في حال العثور على عدد ضئيل من افرادها ابرياء مقابل المئات الذين اعترفوا بجرمهم، وأيضاً هل يجب مصادرة ممتلكاتهم من قبل السلطة المدنية ام تكريسها لغزو الاراضي المقدسة، فما كان من الجامعة الا أن ردت رداً حذراً اشارت فيه إلى ان هذه الهيئة هي هيئة دينية لذلك هي تحت الاشراف القضائي اللاهوتي، ومن حق السلطة المدنية اعتقال هراطقة منهم لكن يجب تسليمهم إلى تلك المحكمة، لذلك يجب التأكد من ان الذين اعترفوا بالجرم لم يفسدوا الرهبان المحتملة براءتهم، وهو ما يعني من الضروري حراسة ممتلكات الهيئة لضمان تطبيق الأهداف التي اوجدت من اجلها، ولذلك نجد ان فيليب الرابع وظف ذلك الجو لصالحه فعقد اجتماع لمجلس الطبقات في مدينة تور (Tor) في ايار 1308 لحشد التأييد الشعبي له، الذي حصل عليه بالإجماع، وكما حاول وفي اجتماع آخر عقده في القصر الملكي في بواتيه في 29 ايار ايضاً ان يضفي على اهتمامه بشأن قضية الداوية منطلقات ودوافع سامية لأن واجبه الديني يفرض عليه ذلك وليست لديه نوايا تجاه ممتلكات تلك الهيئة، فكان رد البابا كليمنت على ذلك بأن وضح السمعة الجيدة التي تمتع بها فرسان الهيكل من قبل، وأعطى وعداً بإقامة محكمة خاصة لهم، سيما بعد أن

(1) سهيل زكار، المصدر السابق، ص3195 ؛ ستيفن هوارث، المصدر السابق، ص322.
(2) سهيل زكار، المصدر السابق، ص3197.
(3) ستيفن هوارث، المصدر السابق، ص325.
(4) سهيل زكار، المصدر السابق، ص3198 ؛ هـ.ا. ل. فشر، المصدر السابق، ص294. للمزيد من التفصيلات عن طرق تعذيب فرسان الهيكل ينظر: عمرو كامل وآخرون، الاشرار، دار ليلى، الاسكندرية، 2015، ص38.

ادلى دي مولي وعدد كبير من فرسان الهيكل بأكثر اعترافاتهم مما جعل البابا يأمر ملوك اوروبا الاخرين بالقبض على اعضاء فرسان الهيكل في بلادهم والاستيلاء على ممتلكاتهم، وفعلاً تم تشكيل المحكمة الخاصة وعاد فيليب الرابع ليمارس ضغطه المعتاد على البابا فقد جدد اصراره على تجريم البابا بونيفاس الثامن وأن يتعهد كليمنت بعدم مغادرة فرنسا، كما رفع قضية ملكية ضد الاسقف غوشارد اسقف تروي اذ تم العثور على شاهد يتهم هذا الاسقف باستعمال السحر في مسألة وفاة الملكة جين دي نافار[1].

لم يجد كليمنت الخامس الا الموافقة ارضاءً لفيليب الرابع مع المحافظة على ان مصير هيئة فرسان الهيكل لا يتم اقراره الا عن طريق عقد مجمع كنسي، وبناء على ذلك افتتحت محكمة لسماع الاتهامات ضد البابا بونيفاس الثامن في اذار عام 1310 واستمرت بعقد الجلسات حتى وافق فيليب الرابع على اسقاط التهم عن بونيفاس الثامن بالوقت الذي أصدر فيه كليمنت في نيسان 1311 مرسوم أكد فيه على براءة فيليب الرابع وحسن نواياه، وأمر بإلغاء جميع العقوبات المتعلقة بأحداث اناني وشطبها من السجلات البابوية، فضلاً عن تحليل دي نوجاريه من الحرمان الكنسي[2].

في تلك الاثناء تقرر مصير فرسان الهيكل من قبل مجمع ڤينا الذي افتتح في 16 تشرين الأول عام 1311 الذي تم فيه الغاء تلك الهيئة رسمياً في 22 آذار عام 1312، في الوقت الذي استمر بقاء قائد الهيئة دي مولي مع ثلاثة من كبار اعضائها في السجن حتى اذار عام 1314، وهم قائد مقر اكيتان جيفري دي جونفيل (Jeffrey de Guay) وقائد مقر نورماندي (Normandie) جيفري دي شارني (Jeffrey de Charney) وأمين خزانة وزراء الهيكل في فرنسا هيودي بيرو (Hugh de Perou)، عندها قررت المحكمة تشكيل لجنة بابوية لتقرير مصيرهم فكان من توصياتها هو الحكم بالسجن مدى الحياة لهم، وهو ما وافق عليه كلا من دي بيرو ودي جونفيل، إلا أن هذا القرار قد واجهة بالرفض كل من دي مولي ودي شارني فقد اعلنا براءتهما وان اعترافاتهما السابقة قد انتزعت تحت التعذيب، وهو ما أثار موجة من التعاطف من قبل اللجنة البابوية والتي اعطت وعداً بدراسة القضية بشكل أعمق، وهو ما حدا بالملك فيليب للتصرف بسرعة حيال ذلك فأمر بإحراق قادة الداوية في اذار من العام نفسه، وهم يصبون اللعنات على البابا الذي توفي في نيسان من ذلك العام، وعلى الملك فيليب الرابع الذي توفي في تشرين الثاني عام 1314[3].

ومن الأهمية ان نذكر ان اغلب محاكم التفتيش التي اقيمت ازاء هيئة فرسان الهيكل في اوروبا بالتزامن مع اقامتها في فرنسا قد تباينت نتائجها، فلم يتم تجريم تلك الهيئة الا في فرنسا وايطاليا، في الوقت الذي لم يثبت أي اتهام على تلك الهيئة في قبرص والمانيا وقشتالة واراجون والبرتغال، أما في انكلترا فقد اعترف ثلاث من أعضاء الهيئة فقط بالتهم الموجهة لهم، ومهما يمكن من أمر، فأن مستهل القرن الرابع عشر كان علامة على نهاية المرحلة الاولى من تاريخ النظم الرهبانية العسكرية[4]، فضلاً عن ان الملكية الوطنية في اوروبا قد حققت لنفسها وضعاً سيادياً وأجهزت على بابوية العصور الوسطى[5].

الخاتمة

تعد الفترة موضوع البحث من الأهمية بمكان، لكونها مرحلة فاصلة بين هيمنة البابوية في روما على ملوك وأمراء اوربا، اذ ارتبطت مكانتها لقرون بهالة قدسية لا يمكن النيل منها، فهي الدافع والداعم للحروب الصليبية التي شنها ملوك اوربا سيما الفرنسيين منهم نحو الأراضي المقدسة في القدس، فضلاً عن ما اوجدته من تنظيمات رهبانية عسكرية أصبحت بتقادم الوقت قوة عسكرية بالغة الثراء والاستقلالية أثارت حسد ملوك والأمراء، وبين نشوء الملكية المطلقة التي تؤمن بما عرف بنظرية الحق الإلهي في الحكم تمثلت بالملك فيليب الرابع (الوسيم) الذي استطاع وعبر ما أحاط به نفسه من مجموعة منتقاة من المستشارين القانونيين والأكاديميين من أبناء الطبقة الوسطى أن يحقق طموحه بمد نفوذه على كل ما هو موجود على أرض بلاده سيما حاجته الماسة والدائمة للمال لتغطية نفقات

(1) سهيل زكار، المصدر السابق، ص3210 ؛ جوناثان، ايلي سميث، المصدر السابق، ص57.
(2) سهيل زكار، المصدر السابق، ص3201.
(3) ستيفن هوارث، المصدر السابق، ص364-365 ؛ جوناثان رايلي سميث، المصدر السابق، ص60.
(4) جوناثان رايلي سميث، المصدر السابق، ص59- 64 ؛ ستيفن هوارث، المصدر السابق، ص357.
(5) نورمان ف. كانتور، المصدر السابق، ص654.

حروبه مع انكلترا، وشمل ذلك رجال الدين في فرنسا بأن فرض عليهم ضرائب بدون أخذ اذناً بابوياً وهو ما انكره البابا بونيفاس الثامن وعده تجاوزاً من قبل الملك فنشب صراع بين السلطة الروحية المتمثلة البابا والمدنية أو الزمنية المتمثلة بالملك فيليب الرابع في أواخر القرن الثالث عشر ومستهل القرن الرابع عشر، فنجد صراعاً بين سلطتين تدعيان أنهما الأجدر بالطاعة والولاء وأن السلطة الروحية والزمنية تتجسد فيمهما فاستخدما كل الأساليب المتاحة لهما لإثبات ذلك وللقضاء على الطرف الآخر.

استخدم البابا سلطته البابوية وما أتيح له بموجب القانون الكنسي بأن يعقد الاجتماعات الكنسية وأن يصدر مراسيم الحرمان بحق الملك ومستشاريه، مهدداً بخلع الملك فهو يعد نفسه ممثلاً للرب على الأرض، في الوقت الذي استخدم الملك فيليب الرابع دهاءه ودهاء ولباقة مستشاريه سيما وليم دي نوجاريه بأن حاول بكل جهده الحصول دائماً على دعم الرأي العام والشعب الفرنسي فأوجد ما عرف بمجلس الطبقات الثلاث محاولاً التركيز على طبقة عامة الشعب وتحجيم دور النبلاء ورجال الدين، وبذلك حمل الصراع متغيرات سياسية داخلية في الملكية الفرنسية إذ برزت الطبقة الوسطى من قانونيين واكاديميين إلى السطح فهي تقف إلى جانب الملك وتضع الخطط وتشرف على تنفيذها، وهي بذلك تعلن عن بدأ ظهور الملكية الوطنية حتى وان لم تكن ورائها دوافع وأهداف سامية.

كما يمكن قراءة مقدار التسلط والرغبة بالهيمنة التي طبعت حكم الملك فيليب الرابع والتي فاقت المسلمات الموجودة في عصره إذ تجاوزها بكل قوة، فهذه المرة الأولى التي يقدم فيها ملك من وسط كاثوليكي محافظ بأن يشرف على محاولة اختطاف للبابا ومحاولة جلبه لفرنسا ومحاكمته، فضلاً عن تدخله في اختيار البابوات حتى وصل الأمر لنقل مقر البابوية إلى فرنسا بما عرف بالأسر البابوي الذي دام لسنوات طوال، فضلاً عن ممارسته الضغط واملاء الشروط على البابوية بعد وفاة بونيفاس الثامن لتتعاون معه في تنفيذ أهدافه خاصة القضاء على هيئة الفرنسان (الداوية) لدرجة اتهامهم بأبشع التهم ومحاكمتهم وتعذيبهم والقضاء على أهم هيئة عسكرية صليبية، والاستيلاء على أملاكهم لصالح الملك، ونستنتج من ذلك أن البابوية قد وصلت في تلك الفترة بالذات إلى اسوأ مراحلها إذ باتت مسلوبة الإرادة.

ويمكن أن نلاحظ أن عهد الملك فيليب يعد عهداً ازدهر فيه نظام الحكم الاوتوقراطي والعلماني بالتزامن مع نشوء الملكية الوطنية، فضلاً عن أخذ هيئات الحكومة المركزية بشيء من التخصص وأصبح للقضاء وللأمور المالية دوائر خاصة بهم، كما أصبح مجلس الطبقات أداة تشريعية استثنائية لإشراك الطبقات الثلاث فيما يصدر عن السياسة الملكية من قوانين ذات شأن عام ويحسب له أنه أوجد جيشاً عسكرياً موحداً بعد أن كان كل اقطاعي له جنده الخاص به، وازدهار الفنون والآداب والعمارة، إلا أن حكمه اتسم أيضاً بالظلم ومقت الناس لكثرة جمعه للضرائب، وعدم مراعاة الصالح العام، واستخدام شتى السبل والاتهامات للقضاء على الخصوم.

المصادر والمراجع

اولاً: الكتب العربية والمعربة

1. أدوار بروي وآخرون، تأريخ الحضارات العام، القرون الوسطى، ترجمة يوسف داغر وفريد م. داغر، ج3، منشوات عويدات، بيروت– باريس، 1986.
2. جون لوريمر، تاريخ الكنيسة، جمع وترجمة: عزرا مرجان، ج4، دار الثقافة، القاهرة، 1988.
3. جون هامرثن, تاريخ العالم, المجلد السادس, مكتبة النهضة المصرية, القاهرة، د.ت.
4. جوناثان رايلي سمث، تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة: قاسم عبده قاسم، ج2، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2009.
5. رأفت عبد الحميد، الفكر السياسي الاوربي في العصور الوسطى، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2012.
6. زبيدة محمد عطا، " رؤية تاريخية في الحملة الصليبية الثامنة على تونس" ندوة الغرب الإسلامي والغرب المسيحي (تنسيق) محمد حمام، الرباط، ١٩٩٥.
7. ستيفن هوارث، فرسان الهيكل (القضية الأساسية)، ترجمة: ابراهيم محمد ابراهيم، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2013.
8. سعيد عبد الفتاح عاشور, تاريخ اوروبا في العصور الوسطى, دار النهضة العربية, بيروت,1976م.

9. السيد الباز العريني، تاريخ أوربا العصور الوسطى، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1968، ص529.
10. عبد الحميد البطريق، وعبد العزيز نوار، التاريخ الاوروبي الحديث من عصر النهضة حتى اواخر القرن الثامن عشر، دار الفكر العربي، القاهرة، 1997.
11. عبد القادر احمد اليوسف, العصور الوسطى الأوربية 476–1500م, بيروت, 1967.
12. عمرو كامل، واخرون، الأشرار، دار ليلى، الاسكندرية، 2015.
13. فردريك كوبلستون، تاريخ الفلسفة، ترجمة أمام عبد الفتاح أمام واسحاق عبيد، مج2، القسم الثاني من أوغسطس إلى دانر سكوت، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2010.
14. قحطان احمد سليمان الحمداني، الاساس في العلوم السياسية، دار مجدلاوي، عمان، 2004.
15. كلود ديلماس، تاريخ الحضارة الأوربية، ترجمة كوليت حبيب، وزارة الثقافة والارشاد القومي، دمشق، د.ت، ص62.
16. محاكم التفتيش في فرسا، ترجمة رمسيس عوض، المجلس الاعلى للثقافة، القاهرة، 2005.
17. محمود سعيد عمران, معالم تاريخ أوروبا في العصور الوسطى, دار المعرفة الجامعية, بيروت, 1986.
18. محمود سعيد عمران, معالم تاريخ أوروبا في العصور الوسطى, دار المعرفة الجامعية, بيروت, 1986.
19. محمود سعيد عمران، حضارة أوربا في العصور الوسطى، دار المعرفة الجامعية، القاهرة، 1998.
20. موريس بيشوب، تاريخ اوربا في العصور الوسطى، ترجمة: علي السيد علي، المجلس الاعلى للثقافة، القاهرة، 2005.
21. نورمان ف. كانتور، التاريخ الوسيط قصة الحضارة البداية والنهاية، ترجمة: قاسم عبده قاسم، ج2، عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية، الهرم، 1997.
22. هـ. ا. ل. فشر، تاريخ اوربا في العصور الوسطى، ترجمة: محمد مصطفى زياده وأخرون، ج2، دار المعارف، مصر، 1954.
23. ول ديوارنت, قصة الحضارة (عصر الايمان), ترجمة محمد لدران, ج4, المجلد الرابع, دار الجيل, بيروت, 1988.
24. ياسر مصطفى الطبال، اساطير عالمية مخيفة، منشورات دار الكتب للنشر والتوزيع، القاهرة، 2014.

ثانياً: الكتب الاجنبية:

1. C.W.Post, The hour and man Abiography with Genealogical supplement, Nettie Leitch cillustr a tor), Judd and Detweiler press, Washington,1963.
2. Denton, J., Taxation and the conflict between Philip the Fair and Boniface VIII. Oxford University Press, Oxford, 1997.
3. Elizabeth A. R. Brown, "Taxation and Morality in the Thirteenth and Fourteenth Centuries: Conscience and Political Power and the Kings of France", Historical Studies 8,French, 1973.
4. S.H.Homoud, Islamic Banking, Arabian Information, London, 1985**.**
5. James Given, Power and Fear in Philip IV's France,Vol.6,University of California,Irvine, 2006**.**
6. Juan de Mariana, A Treatise on the Alteration of Money, Sources in Early Modern Economics,Ethics, and Law, 2 ed Christian Library Press, Action Institute, 2011**.**
7. Mark Lowry, Boniface VIII and Philip IV: Conflict Between Church and State, Senior Seminar (HST 499W), History Department Western Oregon University, June 6, 2008**.**
8. R.W. Southern, Western Society and The Church in the Middle Ages, Grand Rapids,Mich, Erdmans, 1970**.**
9. Sophia Menache, Clement V, Cambridge University Press, Cambridge United Kingdom, 1998.
10. T.S.R. Boase, Boniface VIII, London, Constable, 1933.

ثالثاً–الموسوعات:

1. سهيل زكار، الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية (مشاريع ما بعد الحملة السابعة)، ج36، دمشق، 1999.
2. مفيد الزيدي، موسوعة تاريخ اوروبا، ج1، دار أسامة، عمان، 2003.

3. مجموعة من المؤلفين والباحثين، الموسوعة العربية الميسرة، المكتبة العصرية، بيروت، 2010.
4. ناظم عبد الواحد الجاسور، موسوعة علم السياسة، دار مجدلاوي، عمان، 2009.

رابعاً: الرسائل الجامعية

1. عباس يحيى عبد القادر، ادوارد الاول وأثره السياسي في انكلترا 1239-1307، رسالة ماجستير غير منشورة مقدمة الى كلية التربية للعلوم الانسانية جامعة ديالى عام 2016.

خامساً: البحوث والدراسات

1.احمد الطويلي، الحملة الصليبية الثامنة على تونس، مجلة المورد، العدد الرابع، بغداد، 1987.

سادساً: شبكة المعلومات الدولية (الانترنت)

1.https://en.wikipedia.org/wiki/Henry_III,_Duke_of_Brabant

2.http://www.glbet-el.org/masonictexte/Philip%20IV%20the%20Fair.pdf

الملحق

ملوك فرنسا من اسرة أل كابيه

التسلسل	اسم الملك	سنوات حكمه
1	هيو كابيه	987-996
2	روبرت الثاني	996-1031
3	هنري الاول	1031-1060
4	فيليب الاول	1060-1108
5	لويس السادس	1108-1137
6	لويس السابع	1137-1180
7	فيليب الثاني	1180-1223
8	لويس الثامن	1223-1226
9	لويس التاسع	1226-1270
10	فيليب الثالث	1270-1285
11	فيليب الرابع	1285-1314
12	لويس العاشر	1314-1316
13	فيليب الخامس	1316-1322
14	شارل الرابع	1322-1328

المصدر: عبد القادر أحمد اليوسف، العصور الوسطى الأوربية 476-1500، بيروت، 1967، ص379.